الشيء بالشيء يذكر!

مجتمع السكان الاصليين في جنوب افريقيا من اتعس مجتمعات العالم على الاطلاق.. ويكفي ان نقرأ ما كتبه ادباء جنوب افريقيا نفسها عن ذلك المجتمع حتى نتزعزع من الاعماق... ومؤلفات هؤلاء الكتاب أصيلة ومؤثرة الى درجة الايلام وتوبيخ الضمير.

ولعل ابرز من هز العالم بتصوير حياة زنوج الأبرتهايد الن بتون وهاري بلوم، وكلاهما من انشط المناضلين في حركات المساواة في الحقوق القومية، الامر الذي عرضهما الى الملاحقة الشديدة، ولم ينجهما من الموت سوى لون بشرتيهما الابيض.

أشهر مؤلفات الن بتون قصته العظيمة "ابك يا وطني الحبيب" التي ترجمت الى معظم لغات العالم الواسعة وقصته "تعال الي يا ابيض البشرة" التي تروي مأساة حب بين ابيض وسوداء.

اما هاري بلوم فقد برز في العالم الادبي والفني باوبرا "كنغ كونغ" التي يصح اعتبارها عملا ادبيا وفنيا عظيما لصدقها وأصالتها وجماليتها، كما اشتهرت له قصة بعنوان: " فضيحة في ترانسفال"، ذكرتنا بعض مشاهدها واحداثها بعالم غير بعيد عنا .. وما دام الشيء بالشيء يذكر فلنقرأ معا هذا الوصف لحياة الزنوج، السكان الاصليين

في الاحياء المغلقة التي يعيشون فيها، والحي الزنجي في المدينة البيضاء يطلقون عليه هناك اسم "المنطقة"!!

و.. "يعيش سكان المنطقة كأسرى .. وهم مقيدون ومشدودون الى قوانين لا يسري لها اي مفعول على سكان المدينة البيض. المحظورات هنا لا تحصى، وغير المحظور يجب ان يعتبر متاحا بشكل واضح. فحيث توجه الانسان، وفي اي عمل يقوم به، يكون معرضا لتجاوز القانون. يوجد هنا الكثير من الاوراق الرسمية-اوراق وردية، اوراق خضراء واوراق حمراء-لان كل شيء يجب ان يكون مخطوطا وموقعا عليه. الحياة في "المنطقة" مخنوقة بستار كثيف من البيروقراطية. ويسير انسان المنطقة هنا وهناك، وهو مغطى باختام المفتش الرئيسي ..

انه يتحول الى قطعة من الورق، أسرته تتحول الى رزمة من الورق، وبيته-رقم في السجل، عمله-ورقة صفراء .. وحياته وامنه-لا يحملان من القيمة سوى ما تحمله الاوراق المحشوة في جيوبه. وعمل الشرطة سهل للغاية، فكل انسان مجرم خطير .. ولا احد يجرؤ على الاقل بان ينجح في تنفيذ جميع القوانين-فسيكون امرا سيئا اذا ما نجحوا في اطاعة جميع القوانين، لان مؤسسات كثيرة، وخاصة المزارع تعيش على عمل السجناء. الشرطة تعتقل كل أسود تعتقد انه من اليسير سجنه. واذا ساد الهدوء ارجاء المدينة، فان الشرطة تغزو "المنطقة" وتعثر على المجرمين في فراشهم. سكان المنطقة على علاقة وثيقة الى درجة اليأس، بالشرطة. كل قرعة على الباب قد تكون قرعة شرطي. كل يوم قد لا يعود الزوج من عمله الى منزله، حيث يعثر عليه فيما بعد في السجن، معتقلا بسبب تشويش في تصريح سفره، او بسبب حمله عصا مسمرة، او بسبب الجلوس على مقعد

محظور في حديقة المدينة، او نسيان ايصال في البيت، او عدم الطاعة، الوقاحة، اجتياز الحدود، الازعاج، او اي ذنب من الذنوب الاخرى التي لا تحصى .. كل يوم قد تطلب النقود بذهول كبير لدفع الكفالات، والغرامات، واجرة المحامي.. كل يوم قد يرى الانسان للمرة الاخيرة قبل اختفائه لعدة اسابيع، وربما لاشهر، واحيانا لسنوات - وفي هذه الاثناء يباع بيته وتطرد أسرته .."

"..الحياة في "المنطقة"، تخيم عليها دائما اجواء الشك والقلق.. فيَ كل ساعة، في كل نهار، وفي كل ليلة. ولكن فائدة كبيرة يجنيها من هذا اولئك البيض الذين يعيشون على عمل السجناء الاجباري. واصحاب المزارع الذين هم الدعامة الاساسية للحكومة، يتعاونون مع الشرطة ببنائهم سجونا خاصة بهم، بنقودهم هم وبتشجيع من وزير العدل، من اجل اسكان اسرى "المنطقة" في تلك السجون"

هذا قليل من كثير،

والشيء بالشيء يذكر.